

الفصل الأول

قصص الحب

لست أعنى بالقصة ذلك المعنى الذى أراده «بوه» Poe السيد الأول للقصة القصيرة الحديثة كما تلقبه دائرة المعارف البريطانية بصدده حديثه عن حكايات ناثانيال هاثورن Nathaniel Hawthorne (١٨٤٢م) فقد قال : «علينا ألا نكتب أية عبارة - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - منبثقة عن ميل لم يكن موجودًا في التخطيط المبدئ، فتقدم الفكرة كما هي مرتسمة في الذهن واضحة المعالم، غير مهزوزة». وأكد بعد مرور أربعين عامًا براندر ماتيوس Brander Matheus في بحثه المشهور عن فلسفة القصة القصيرة، قال في الجزء الثانى من حيث البحث : «إن القصة الخليفة بأن تكون قصة شئ، آخر أسمى من أن يعتبر قصة ذات حجم قصير. القصة القصيرة

الجديرة بهذا الاسم تختلف عن الرواية أساساً في الوحدة العامة للاتطباع، بعبارة دقيقة وموجزة.. ومن الجدير بالملاحظة أن القصة القصيرة غالباً ما تتحقق فيها الوحدات الثلاث الأساسية التي تتحقق في الشكل المسرحي الفرنسي الكلاسيكي، والذي يظهر في فعل واحد، في مكان واحد وزمان واحد. والقصة القصيرة أيضاً تقتصر على بطل واحد، وحادثة واحدة، وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد.

لست أقصد هذا المعنى، إذ أنه لم يكن معروفاً في العالم قبل القرن التاسع عشر. وإنما أقصد ذلك المعنى الذي جاء في القواميس العربية لهذه المادة، وأعني تلك الطبيعة الخاصة للقبالب القصصى العرب.

ففي لسان العرب تحت مادة (قصص): «والقصة الخبر وهو القصص، وقص على خبره يقصه قصاً وقصصاً أورده، والقصص الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه والقصص بكسر القاف جمع القصة التي تكتب.. وتقصص كلامه حفظه، وتقصص الخبر تتبعه، والقصة الأمر والحديث، واقتصصت بالفتح الاسم. والقاص الذي يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها.. وفص آثارهم يقصها قصاً وقصصاً وتقصصا تتبعها بالليل، وقيل هو تتبع الأثر أى وقت كان.. قال الأزهرى: القص اتباع الأثر، ويقال خرج فلان قصصاً في إثر فلان

وقصا، وذلك إذا اقتصر أثره وقيل القاص يقص القصص لاتباعه
خبيراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً.

ذلك هو ما يتعلق بموضوعنا من المعنى اللغوي لهذه المادة،
لغناها العام «المتابعة»، فقص آثارهم تتبعها بالليل أو في أى وقت
كان، وتقصص الخبر تتبعه.

ولا نطلب من اللغويين أكثر من هذه المعاني العامة للكلمة، فإن
مهمة أصحاب اللغة هي الإشارة إلى ما تثيره الكلمة من صور ذهنية
عند أصحاب اللغة، وليس من مهمتهم التحديدات الفنية لاستعمال
الكلمة، فإن كلمة «بديع» مثلاً في اللغة غير المعنى المراد لها عند
أصحاب البلاغة. وإذا فمن حقنا أن نلوم أصحاب البلاغة على
تجاهلهم التحديد الفني لمعنى القصة وكان هناك أكثر من مناسبة تتيح
لهم الحديث عن معنى القصة، فمثلاً كان يمكنهم ذلك في أثناء
شرحهم للاستعارة التمثيلية، وأنها قد تكون بتشبيه حالة حاصلة بحكاية
قد حصلت وضرب فيها مثل، كأن تضرب المثل «الصيف ضيعت
اللبن» في حالة تشابه حكاية المرأة مع الرجل العجوز الذى طلب
منها الزواج ففضلت عليه شاباً، ثم حدث أن احتاجت إليه في أمر،
فقال لها هذه الجملة التى صارت مثلاً.

ومن حقنا أيضاً أن نلوم أصحاب الكتب الأدبية كابن عبد ربه
والجاحظ وكان ذا عقلية قصصية شعبية، إذ لم يتعرض أحد منهم
لمعنى القصة ولا لتحديداتها الفنية.

وهذا التجاهل فرع من القضية الكبرى وهى ازوار أصحاب
البلاغة الفصحى، وعلماء الأدب الفصيح عن هذا اللون الهام من
الأدب.

بل إن الجاحظ فى كتابه العظيم «البيان والتبيين» نلمح فى كلامه
السخرية من القصاص، فكان مرة يتحدث عن جهلهم، وثانية عن
نواديرهم، وثالثة عن فلسهم. وسخر ابن عبد ربه فى الجزء الثالث
من العقد الفريد من القصص، فتحت عنوان: «مجانين القصص»
أورد حكايات عن جهلهم وعن نوادرهم.

أمر نحمده لهؤلاء المفسرين، فقد حددوا معنى للقصة أثناء
تفسيرهم للآيات التى وردت فيها هذه الكلمة، وهذا المعنى ملائم
لالتجاهلهم وللغرض الذى يريده أصحاب الدين من القصة.

يقول الرازى رحمه الله عند تفسيره للآية الكريمة: «إن هذا هو
القصص الحق... إلخ.» ما يلى: «والقصص هو مجموع الكلام
المتشتمل على ما يهتدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويسامر بسطلب
النجاة»^(١)

بل تقدم المفسرون خطوة أكثر من هذا، فتحدثوا عن عناصر
القصة، فلا مانع لعلمهم من أن يكون فى القصة عناصر ليست صادقة
صدقاً خارجياً، بل هى أمور خيالية يؤن بها للتوضيح والممثل جاء

(١) التفسير الكبير ٤/٢٧٤ (القاهرة - المطبعة الخيرية - الطبعة الأولى سنة

في الكشف: «فإن قلت ما معنى ذكر النعاج، قلت كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً، لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا، وللتبيه على أمر يستحق من كشفه فيكنى عنه، كما يكنى عما يستحق الإفصاح به وللمستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته.. إلخ. فإن قلت الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يجبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم، قلت هو تصوير للمألة وفرض لها، فصوروها في أنفسهم، وكانوا في صورة الأناسي، كما تقول في تصوير المسائل: زيد له أربعون شاة، وعمر له أربعون وأنت تشير إليها، فخلطها وحال عليها الخول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمر سبد ولا لبد، وتقول أيضاً في تصويرها: لي أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها»^(١).

فالزغشري يرى أن القرآن قد يلجأ إلى عناصر توضيحية، يجسد بها قصصه، ويكشف أحداثه، وكان النيسابوري أصرح في الإشارة إلى هذه العناصر، فقد قال: «ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغي، فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل، ولكن مع منازعة الخيال. وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال.

(١) الكشف ٣/٣٢٢ - ٣٢٤ (مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٤ هـ).

ولا شك أن الثاني يكون أكمل، وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره في الكتاب الذي أنزل بيانا لكل شيء^(١).

ويخطو الزمخشري - رحمه الله - خطوة أخرى، فيتحدث عن أثر القصة وما تفعله في نفوس النشء فيقول: «فإن قلت لم جاءت عن طريق التمثيل والتعريض دون التصريح (وذلك بصدد حديثه عن تمثيل الملائكة في صورة أناس ودخولهم بحراب داود عليه السلام يختصمون إليه في أمر التنعاج ويلتمحون بذلك إلى أمر داود مع امرأة أوريا). قلت: لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالعرض به، كان أوقع في نفسه وأشد تمكنا من قلبه، وأعظم أثرا فيه، وأجلب لاحتشامه وحياته، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه، من أن يبادره صريحا، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة، ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد. إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله، إذا تأملها استمتع حال صاحب الحكاية، فاستمتع حال نفسه وذلك أزجر له، لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياما لشانه، فيتصور قبح ما وجد فيه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الخشمة^(٢)».

(١) غرائب القرآن ١٩٩/١ (مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣هـ).

(٢) الكشف ٣٢٢/٣ (طبع مصطفى محمد سنة ١٣٥٤هـ).



كنا نود أن يتلقف أصحاب البلاغة هذه التلميحات، فتدفعهم إلى البحث عن القصة وعناصرها التي تكون لها الجمال الفني الرائع. ولكنهم وقفوا عند هذا الحد، وكأن الأدب لا يعرف من أنواع القصة إلا القصة الدينية، وكأن المفسرين هم فقط المسئولون عن القصص. وغلبة المعنى الديني على القصص تلمحها أيضًا في المعاجم العربية، فلو وفقها الله وأرادت أن تتوسع في الحديث عن القصص، فإنها تتكلم عن القصص الدينية، جاء في اللسان : « وفي الحديث لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال »، أى لا ينبغي ذلك إلا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا، وإما مأمور بذلك يكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسبًا، أو يكون القاص مختالًا يفعل ذلك تكبرًا عن الناس، أو مرآيًا يراى الناس بقوله وعمله لا يكون وعظه وكلامه حقيقة وقيل أراد الخطبة لأن الأمراء كانوا يلونها في الأول ويعظون الناس فيها ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة. وفي الحديث القاص ينتظر المقت لما يعرض في قصصه من الزيادة والنقصان، ومنه الحديث إن بنى إسرائيل لما قصوا هلكوا، وفي رواية لما هلكوا قصوا... »

ويجئ للقارئ في كتب المفسرين وفي المعاجم وفي كتب الأدب أن كلمة « قصة » قد تخصصت بعد نزول القرآن، فبعد أن كانت عامة تطلق - فيما تطلق - على « الأمر » والتي تكتب كما يقول صاحب القاموس، أصبحت ترادف كلمة وعظ، أى الأمر الذي يلين قلوبًا

الناس بما يقصه عليهم من أخبار الأمم السابقة، حتى إن الزمخشري في أساس البلاغة يجعل من المعاني الحقيقية لهذه المادة، ذلك المعنى الذى نستطيع أن نلمحه من قوله : « والقصاص يقصون على الناس ما يرق قلوبهم ».

وقد كثر استعمال هذه المادة « قصة » وخصوصاً بعد نزول القرآن ولجؤه إلى القصص كوسيلة للتأثير على القلوب، وقد استخدم القرآن هذه المادة في آياته أكثر من سبع وعشرين مرة وذلك على حسب الإحصاء الذى ورد في المعجم المفهرس للآفاظ القرآن الكريم.

فاستخدام هذه المادة في القرآن الكريم، وورودها في نصوص أدبية وفي كتب الأدب والتفسير، وفي المعاجم - كل هذا جعلنى لا أجد غضاضة في إطلاق هذه المادة على هذه الحكايات التى شاعت في الأدب العربى عن العشاق وما جرى لهم.

ومن ناحية ثانية فإن كلمة « قصة » - في ظنى - أنسب من استخدام كلمة سمر، أو خرافة، أو خبر، أو حديث، أو حكاية.

فإن السمر: يعنى - فيما يعنى - الليل وحديثه كما جاء في القاموس، والأسمار تدل بصفة خاصة على الأحاديث والقصص التى يسمر بها الناس في حياة الصحراء كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية.

أما الخرافة: فلها - وإن كان مصدرها - أن رجلاً من عذرة - القبيلة التى اشتهر فيها العشاق الذين نحن بصدد الحديث

عن قصصهم - استهوته الجن فكان يحدث بما رأى، فكذبوه وقالوا: «حديث خرافة» فلع أن مصدرها جل من عذرة لكنها تطلق على حديث مستملح كذب، كما ذكر القاموس. «وقد تطور مدلولها فأصبح لا يدل إلا على الأساطير المستحيلة، إذا قولت بغيرها من الحكايات التي يقبلها العقل وإن كانت من نسج الخيال»^(١).

أما الخبر والحديث: فيطلقان في المعاجم على المعنى العام لهاتين المادتين، فالحديث هو الخبر^(٢)، وعن ابن سيده أن الخبر هو النبأ^(٣). ثم أصبح لهاتين الكلمتين معنى خاص وهو اصطلاح الأصوليين، إذ يعنى بهما ما ينسب إلى النبي عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير. فينحصر - إذن - ترك هاتين المادتين للمعنى الاصطلاحي الذي يسرع إلى الذهن بمجرد التلفظ بهما، ويبحث عن مادة البق بالفن وأدخل فيه.

أما كلمة «حكاية» فلم تستعمل في «اللسان» بمعنى القصة، فما جاء فيه بصدد الحديث عن هذه المادة: «الحكاية كقولك حكيت فلاناً وحاكته فعلت مثل فعله، أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه.. والمحاكاة المشابهة، تقول: فلان يحكى الشمس ويحاكيها بمعنى.. وتلخص دائرة المعارف الإسلامية المعاني التي كانت تطلق على الحكاية

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية مادة «الحكاية».

(٢) لسان العرب مادة «حدث».

(٣) المرجع السابق مادة «خبر».

في القرون الأربعة الأولى من السنة الهجرية، فنقول: «مما تقدم تبين أن كلمة حكاية تطابق الكلمة اليونانية «vivlris» ومن ثم جاءت جميع معانيها فهي أولاً تأتى بمعنى المحاكاة رغبة في التورية، والمحاكاة المحترف هو الذى يقلد أيضاً. ثم ترد بمعنى رواية القول، فنقول: حكيت عنه الحديث حكاية. وقد تدل على مجرد المشابهة كما لو كان شئ يحاكى آخر لشبه بينهما». وإذا صح ما جاء في هذه الدائرة من أن الحكاية لم يكن من معانيها القصة في القرون الأربعة الأولى على الأقل، فإن الرازى حين يقول: «وإنما سميت الحكاية قصة، لأن الذى بهص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً» - يجعل الأخبار التى تروى عن الأم السالفة حكايات، ثم أطلق عليها لفظ قصة، لأن الحكايات يتبع بعضها بعضاً مع أن العكس هو الصحيح إذ أن تلك الأخبار يسميها القرآن قصصاً. ثم أطلق على تلك القصص - في وقت متأخر يحدده بعضهم بعصر الحريري - حكايات، لأن الذى يقص القصص - على ما رأى يحاول أن يحاكى في قوله الأصل الذى رقت فيه، وهذا التعليل يصدق إن كان للحكاية أصل تحاول أن تقلده. أما إذا كانت بنت القرينة فإننى أرى أن لفظ الحكاية أطلق على القصة التى لها أصل، ثم أصبح يدخل في مدلوله - من باب الغلبة - القصة التى لا أصل لها.

وفذلكة الموضوع أن الكلمات: خبر وحديث وحكاية وقصة تفيد معنى واحداً، ففى تزيين الأسواق عقد مؤلفه عنواناً: أخبار

المجنون وصاحبه ليل»، ثم قال في أثناء هذه الاخبار: «وسيجي ذكر ما رأى له من أشعار أورده آخر القصة» وفي كتاب «قصص الانبياء» أورد الكشائ كل قصة تحت عنوان «حديث» وابن المقفع يستعمل كلمة «حكى» لما أورده من إحدى القصص.

ولكني مع ذلك أوتر كلمة «قصة» على غيرها، لأنها أقرب إلى محيط الأدب. ولأن كلمة خير وحديث قد غلب عليها المصطلح الديني. ولأن كلمة حكاية لم نستعمل - أو على الأقل لم تشهر - بمعنى القصة في العصر الأموي، ذلك العصر الذي ازدهرت فيه قصص الحب كما بينت في رسالتي للماجستير.

على أنني أعود فأكرر أنني لا أعني بالقصة ذلك المعنى الحديث الذي قال به «بو» مثلاً. إذ لا أطالب الأقدمين بشيء قد اخترعه المحدثون. وخاصة أن فن القصة فن سريع التمر، وإنه لثقتنا تلك المذاهب السريعة التلاحق والكثيرة التشعب، فن كلاسيكية، إلى رومانتيكية إلى واقعية وطبيعية إلى نفسية إلى اللامعقولية... إلخ. وكل مذهب من المذاهب له فهم خاص للقصة يتمشى مع نظرتة وبنائه الفلسفي.

وإنما أعني معنى يتفق وطبيعة القصة العربية، ويتمشى مع نسق هذه الاخبار الغرامية.

على أي حال انتشر بين العرب - والطبقة الشعبية منهم بنوع خاص - نوع من القصص تدور حول العشاق يتسامرون بها في

بجالسهم وحول النيران وبحوار الحيمة. وقد انتشرت هذه القصص بين الناس انتشاراً واسعاً، حتى إن ابن داود لم يجد فائدة في ذكر كثير من هذه الأخبار في كتابه «الزهرة»، لأنها على حد قوله: «قد كثرت في أيدي الناس فقل من يستفيدها». وألفت كتب كثيرة حول هذا الموضوع أغلبها فقد. فقد مات رجل من بني أسد بسبب عشق جارية فصنعوا له كتاباً في ذلك مثل كتاب جميل وثينة وعفراء وعروة وكثير وعزة. وابن النديم في الفهرست يذكر ثبناً باسماء تلك الكتب يزيد على مائة وستة وثلاثين كتاباً، وداود الأنطاكي ينقل عن كتب كثيرة في كتابه «تزيين الأسواق» تزيد على ثمانية عشر كتاباً، وابن أبي حجلة في كتابه «ديوان الصباية» ينقل عن كتب كثيرة من هذا النوع. وقد نافست هذه القصص الغناء والشعر، فبعد يذكر أنه جاء إلى مكة والتقى بالفريض فغناه لحناً في شعر جميل ثم غناه الفريض أيضاً لحناً في شعر جميل، ثم بعد ذلك أراد أن يعرف خبر جميل وثينة فقال: «ليني عرفت إنساناً مجذني بقصة جميل وخبر الشعر، فأكون قد أخذت بفضيلة الأمر كله في الغناء والشعر، فسأل عن ذلك فإذا الحديث مشهور، وقيل له: «إن أردت أن تحبر بمشاهدته فأت بني حنظلة فإن فيهم شيخاً منهم يقال له فلان يحبرك الخبر، فأت الشيخ فآله فقص على معبد قصة رائعة حدثت في الربيع بين جميل وثينة بمحضر من هذا الشيخ»^(١).

(١) انظر هذه القصة كلمة في الأغاني ١٣٩/٢ «طبعة ساسي».

ونقرأ كتب الأدب فنجد الناس يحرصون على هذه القصص، ويفتشون عنها ويرجعون إلى أهل الذكر ليفيضوا لهم فيها، فعبد الملك ابن مروان يسأل كثيراً عن أعجب خبر له مع عزة فيقص عليه قصة فيها غرابة وطرافة^(١). ويدخل نصيب على يزيد بن عبد الملك، فيقول له: «حدثني يا نصيب ببعض مامر بك» فيقص عليه قصة حبه لجارية خطبها فابت أن تتوجه لسواده، ثم رأت أن الشعر والمال يغطيان على السواد فقبلته^(٢). ويدخل على عبد العزيز بن مروان فيسأله: هل عشقت قط؟ فيقص عليه قصة عشقه لامة من بنى ملج^(٣). يخف الناس بباب بعض الولاة يطول وقوفهم، ويصيهم الضيق وإذا بأعراي طريف يتغلب على هذا الضيق فينادي: «من أراد أن يسمع العجائب فليدن مني» ثم يقص عليهم قصة حبه لام جحدر^(٤). فكثير ونصيب وهذا الأعرابي ما هم إلا أفراد من تلك الفئة التي عندها كثير من هذه القصص، يسألهم الناس عنها. وهذا الكتيب سيكشف عن شيء من طبيعة هذه القصص، فيتحدث أولاً عن أغراضها، ثم يتبع ثانياً تطورها على مختلف العصور وفي شتى المناحي.

(١) المرجع السابق ٢٩٩/٢ «طبعة دار الكتب».

(٢) المرجع السابق ٥٤/١.

(٣) المرجع السابق ٢٧٥/١.

(٤) تزيين الأسواق ٣٧/١ (طبعة بولاق ١٢٩١ هـ).

بقيت كلمة أخيرة إذ أن دراستي لهذه القصص ستوسع المعنى الضيق الذى تصوره الباحثون لأنواع النثر، فهم فى دراستهم وفى كتبهم يتحدثون عن الخطابة والخطباء، وعن الرسائل والكتاب، وغير ذلك من أنواع النثر التى فيها تألق وصناعة وأرستقراطية.

وفاتهم أن هناك نوعاً من النثر فيه شعبية وديمقراطية، كان يجرى على ألسنة العامة فى يسر وسلامة وبعد عن التألق والصناعة. وربما كان هذا النوع من النثر أصدق فى الدلالة على نفوس منشئيه ومتلقيه من هذا النوع الذى نشأ كثير منه فى بلاط الخلافة وفوق أحشاب المناير.

والحق أننا فى حاجة إلى تخطيط جديد لدراسة النثر فى أدبنا العربى متمم بالنظرة الكلية التى تلتفت إلى أدب الشعب بجانب أدب الخاصة. وبخاصة فى تلك العصر الذى يتسم بالاشتراكية والتسمع لنداءات الطبقة العاملة. نتخلص من تلك الدائرة الضيقة التى حصر فيها الباحثون أنفسهم. الأمر الذى دأب البعض إلى اتهام الأدب العربى بالعقم والتكلف^(١)

وهذا الإهمال لتلك الجانب الحيوى - من النقاد والمثقفين - أدى إلى أن هذه القصص الشعبية أخذت تنمو فى بطنه وبعد عن الرعاية والتخطيط والدراسة الرائدة.

(١) انظر مقالاً لى نشر بمجلة المجلة (نوفمبر سنة ١٩٦٤) والقصة العربية

القديمة.